محمد الباز
مريم
المصرية

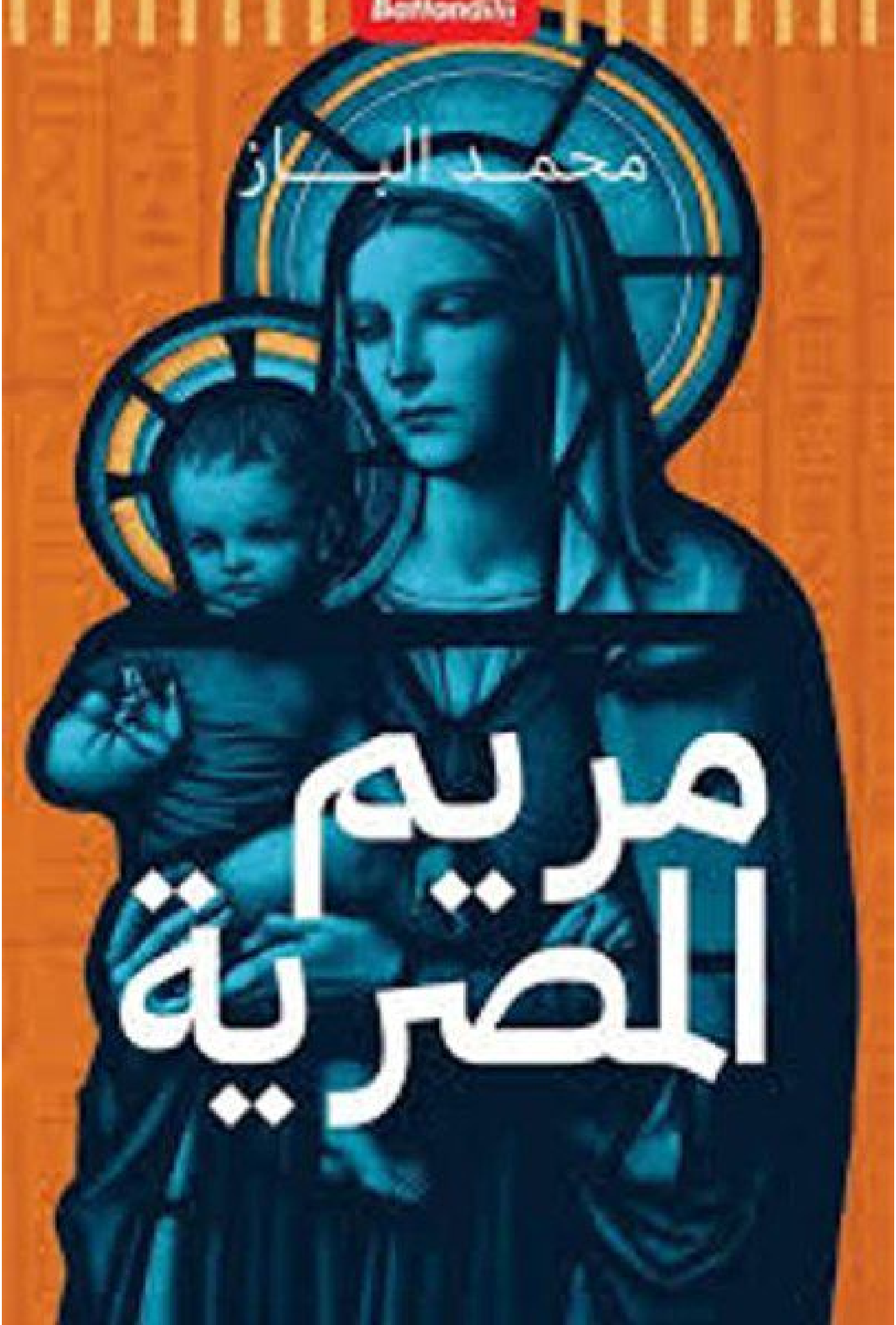

مدد يا أم النور

في كل عام أسارع إلى تهنئة من يتقربون إلى الله بصيام السيدة العذراء.

خمسة عشر يومًا كاملة.

من يوم ١ مسرى إلى ١٥ مسرى بالتقويم القبطي، ثم يكون عيدها يوم ١٦.

أعرف مسيحيين كثيرين لا يصومون من أصوامهم إلا صوم العذراء فقط ليس لأنه الصوم الوحيد الذي فرضه الشعب على الكنيسة وليس لأن المسيحيين جميعًا يصومونه دون أن يتخلف عنه أحد تقريبًا، إلا من اعتصم بغيره، وهؤلاء لا يذكرهم أحد تقريبًا.

ولكن لأنه يرتبط باسم السيدة التي زاحمت كل رجال الأرض، وانتزعت منهم مكانتها المقدسة، فألهمت الجميع معنى أن تستطيع الروح تجاوز كل محن الحياة، وإحَن البشر وطائفيتهم وتحزبهم وتعصبهم وتطرفهم.

السيدة مريم هي الوحيدة التي يحتفي بها تاريخ البشرية الديني، هناك بالطبع أخريات، لكنها تظل الأبرز والأعظم مريم عند المسيحيين هي أم الرب التي تتجلى عندما تضيق الدروب بصغارها، فتلهمهم الصبر على ما يلاقونه، وتبعث لهم برسالة يتلقفونها منها بحب وود وحنان ، فهي موجودة، تحنو على الضائعين وتجبر خاطر المكلومين، وتطبطب على ظهر المنكسرين.

لم أتوقف يومًا عند خلافات الطوائف المسيحية حولها.

هؤلاء الذين يبالغون في تقديسها، وأولئك الذين ينزلونها منزلًا بشريًا.

من يصلون بها إلى درجة الألوهية، ومن يتشفعون باسمها فقط وهم يعرفون أنها لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا، لكنهم يخاطبون روح الله التي

استأمنها عليها يومًا، فرعتها ولم تخُنها.

من ينتظرون تجلياتها التي لا تخلف لها موعدًا، ومن ينكرون التجلي ولا يلقون له بالًا.

توقفت فقط عند الحالة التي يتيه فيها أبناء الطوائف عشقًا وولهًا بالسيدة التي وضع الله يده عليها؛ لأنها امتلأت بنعمته.

* * *

ومريم عند المسلمين هي سيدة نساء العالمين.

لها سورة باسمها في القرآن، المرأة الوحيدة التي نالت هذه المنحة الإلهية.

مكانتها الدينية المقدسة لا تنازعها فيها امرأة أخرى، رغم كثرة اللاتي أثرن في مسيرة الأديان التي احتضنتها الأرض، بعد أن ألقت بها السماء تاركة البشر يتفاعلون معها، كلٌ على طريقته، وكلٌ بمزاجه الخاص.

كلهن كن بشريات قمن بأدوار أرضية وضعتهن فوق قلوالبشر جميعًا، لكن دون قداسة، وهو أمر لافت جدًا، وإذا أردت تفسيرًا لذلك، فما جرى أنهن لم يرتبطن بمعجزات كبرى كما ارتبطت السيدة العذراء بمعجزتها الكبيرة.

هاجر أم إسماعيل تحملت القهر والإقصاء وقسوةالصحراء، وانخلاع القلب، قبل أن يصفح الله عن ولدها إسماعيل فنجاه من الذبح.

كانت السيدة هاجر ساكنة لهذا المشهد تمامًا.

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ».

امرأة فرعون التي لم تستسلم... أخلصت للحظة الإيمان التي اقتحمت قلبها رغمًا عنها.

يكفيها أن الله ضرب بها وبما قالته المثل.

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

بلقيس التي تركت كل ملكها وراءها، وجاءت تسعى لتقول:

«رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

السيدة خديجة التي كانت سندًا لنبي لم يكن يملك من الدنيا شيئًا، لكنها أدركت أنه كان يملك ما هو أهم من الدنيا وأبقى.

لكن وحدها السيدة مريم ظلت سيدة المعجزة الكبرى.

تعانقت من خلالها يد السماء مع يد الأرض، أنجبت دون أن يمسسها بشر، وكان الولد عبد الله ورسوله تعترف الكنيسة بأنها لا تصوم إلا لله هذا واقع لا يمكن لأحد أن يُنكره عليها، لكنها لا تتحرج من نسبة الأصوام إلى الرسل وإلى السيدة العذراء.

لديهم مبرر منطقي لا يمكن أن تنكره عليهم.

فالصوم في الغالب يقع قبل أعياد الرسل؛ ولذلك يُنسب إليهم، ويسمى بأسمائهم، كما ينسب صوم العذراء إليها لأنه ينتهي بعيد صعود جسدها.

هو بعض من التكريم الذي لا يمكن أن يستاء منه أحد، كما أنه تذكير بالصالحين وتخليد لهم، وتقديمهم كقدوة للأجيال التي تتوالى على دين المسيح في اليوم الذي تنيَّحت فيه السيدة مريم كانت قد أتمت من حياتها 53 عامًا و8 شهور و16 يومًا.

تقول الرواية إنه بعد أقل من خمسة عشر عامًا على صلبه، أرسل يسوع إلى أمه ملاكًا يحمل إليها خبر انتقالها، فاستبشرت خيرًا، لكنها

طلبت منه أن يأتيها بكل الرسل الذين ذهبوا ليبشروا بالإنجيل في بقاع الأرض المختلفة.

في لحظات قليلة كان الرسل جميعًا أمام العذراء، ولم يتخلف إلا «توما» الذي كان قد ولّى وجهه إلى الهند.

في الغالب لم يتخلف «توما» لشأن يخصه، بل كانت تدخره الحكمة العليا إلى لحظة قدرية لتكتمل بها الرواية.

زفّت العذراء إلى الرسل خبر انتقالها، خففت عنهم وقع الخبر.

عزتهم ومسحت الدموع التي غلبتهم.

وقبل أن تصعد الروح وجدت يسوع المسيح يقف بين يديها في حشد من الملائكة، نظرت في عينيه وكان لا بد لها أن تفعل، ثم أسلمت أمرها كله لله.

توجه إليها الرسل، رفعوا جسدها ووضعوها في التابوت، من دون أن يكفوا عن الترتيل الذي شاركتهم فيه الملائكة غير المنظورين.

ولما استقرت في قبرها، لم يغادرها الرسل الذين ركنوا إلى تراتيل الملائكة التي استمرت لثلاثة أيام متواصلة... وعندما انقطعت أصوات التسابيح واختفت رائحة البخور التي عمّت المكان، عادوا إلى بيوتهم يلفهم الحزن ويسيطر على ملامحهم الأسى.

هل تأخر «توما» عن المشهد؟

قلت لكم إن الأقدار كانت تدخره للحظة خاصة جدًا به كانت مشيئة الله قد اقتضت أن يصعد جسد العذراء إلى السماء محمولا على أكف الملائكة دون أن يراها الرسل، لكنها خصت «توما»، الذي جاءت به محمولا على سحابة، بهذه المنحة السماوية .

كان جسد العذراء صاعدًا إلى السماء و«توما» محمولًا على سحابته، ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام موكب السيدة مريم الصاعد إلى السماء.

قالت له الملائكة: تقدم وتبارك من جسد كلية الطهر.

فعل «توما» ما طلبوه منه، ثم عادت به السحابة إلى الهند ليكمل تبشيره، ولما عاد إلى أورشليم وجد الرسل يخبرونه بنياحة العذراء، فطلب منهم أن يرى الجسد بنفسه، أخذوه إلى مكان القبر، فتحوا التابوت فلم يجدوا إلا الأكفان فحزنوا اعتقادًا منهم أن اليهود سرقوا جسد السيدة.

كان «توما» يدخر المفاجأة.

قال لهم: لقد رأيت جسد العذراء الطاهرة محمولًا بين أيدي الملائكة، فعرفوا أنها صعدت في نهاية اليوم الثالث الذي انقطعت فيه تسابيح الملائكة، وتبددت رائحة البخور .

أخذ الرسل مما جرى لجسد العذراء الفكرة، قرروا أن يصوموا من أول مسرى لمدة أسبوعين، رافعين خلاله الصلوات أن يمنحهم يسوع بركة مشاهدة صعود الجسد إلى السماء، فحقق لهم الرب ما أرادوا في 16 مسرى، ليصبح اليوم بعد ذلك «عيد صعودها»

وقبل أن نغادر الرواية اسمع لأصحابها وهم يقولون إن جسد العذراء محفوظ تحت شجرة الحياة في الفردوس؛ لأن الجسد الذي حمل روح الله الكاملة تسعة أشهر، وأخذ ناسوته منه، لا يجب أن يبقى في التراب ويتحلل ويكون عرضة للفساد ومرعى للدود.

تحديد السنة التي ماتت فيها السيدة العذراء ليس مهمًاعلى أي حال.

والخلاف حوله لا يمكن أن يمنعنا من التأمل فيما وراء ما جرى.

طبقًا لكتب التاريخ فإنها توفيت بعد صلب المسيح (طبقًا للمسيحية)، ورفعه إلى السماء (طبقًا للإسلام)، بخمس سنوات، وكانت في الثالثة والخمسين من عمرها.

وطبقًا لكتب التاريخ أيضًا، فإن نهاية المسيح كانت عام ٣٠ أو ٣٣

ميلادية، ومعنى ذلك أنها ماتت في سنة ٣٥ أو ٣٨ ميلادية.

كل ذلك لا قيمة له، لأن للسيدة مريم الآن معنى ودلالة، أكثر من أي شيء آخر.

لن يختلف الأمر إذا عرفنا في أي عام ولدت، أو في أي عام توفيت.

لكن سيكون فارقًا جدًا، عندما نَقدر حجم آلامها وأحزانها، عندما نعرف أنها سيدة المدد الأولى في التاريخ كله.

ولأنها سيدة المدد... فهي ترحب بكل الضعفاء والمستضعفين... الفقراء والمحتاجين... الحزانى والمكسورين... تغيثهم وتجبر خاطرهم لمجرد إحساسهم بأنها تراهم، وعندما تضيق الدنيا بهم يجدونها تتجلى لهم... وليس مهمًا أن يكون التجلي على قبة كنيسة، فالتجلي الحقيقي والأكثر تطل به السيدة العذراء على القلوب.

هل اقتربت من مريم التي أريد أن أتحدث عنها على هامش حالة روحانية يتقرَّب إليها بها ملايين البشر حول العالم؟

تقريبًا تكَوَّن المعنى الذي أريده.

ففي عالم لا يعرف سوى القسوة تأتي هذه السيدة لتزيل عن كواهل المتعبين تعبهم، يثقون بأنها صاحبة معجزات، وحتى لو كنت لا تؤمن بما تقدر عليه، فإنك لا تستطيع أن تتخلص من سطوتها وسيطرتها عليك.

يمكنك أن ترفض ما أقوله؛ فأنا لن أتحدث عن مريم المسيحية، ولا مريم المسلمة، ولكن هنا حديث ممتد عن مريم المصرية.

إنها ككل شيء يدخل إلى المصريين من باب الدين، يرحبون به، ثم يصبغونه بصبغتهم الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يصل إلى حدودها.

ولذلك فأم الرب عند المسيحيين، وسيدة نساء العالمين عند المسلمين، عند المصريين ستجدها شفيعة.

شفيعة دون النظر إلى انتمائها، ولا إلى من تنتسب، ولا ما الذي يحتمه الإيمان عليها، فهي بالنسبة للمصريين خالصة لهم تمامًا.

إنهم يتعلقون بخيوط الرحمة التي وضعها الله بين أصابع أوليائه، والسيدة مريم من أولياء الله الكبار.

ألم يستأمنها على سره.

على كلمته وروحه التي جعل منها ولدًا أو نبيًا مرسلًا... لا فرق.

ألم يجعلها تلد طفلًا بعد تعطيله الأسباب التي نعرفها،مانحًا إياها أسبابه هو وطلاقة قدرته هو.

هي إذن صاحبة معجزة وكرامة، قد لا يعرف المصريون عنها كثيرًا ولا قليلًا، لكنهم مع ذلك وفي خطوبهم الكثيرة يرفعون أيديهم إلى السماء، طالبين المدد من أم النور.

***

العذراء على صدور المسلمات

لن تلتفت إذا رأيت صورة السيدة العذراء على جدران بيوت المسيحيين.

الأمر طبيعي جدًا.

ولن تتعجب عندما تصادفك داخل سياراتهم على شكل عروس صغيرة.

الأمر منطقي جدًا.

ولن تندهش لو وجدت صورة صغيرة لها بين أوراق حافظة أحدهم.

الأمر تلقائي جدًا.

لكن ما يثير إعجابك واندهاشك وربما تلتفت له رغمًا عنك، أن تجد

هذه الحالة تتكرر مع المسلمين، فالسيدة العذراء تزين جدران بيوتهم وزجاج سياراتهم ويحملونها ضمن أوراقهم.

فلا تتعجب عندما ترى بنتًا صغيرة أو شابة تفتح ذراعيها لتحتضن الحياة، أو سيدة مسلمة، يرتدين سلسلة من الذهب أو الفضة بها صورة للسيدة مريم.

من حقك أن تسارع دون أن تلتقط أنفاسك التي ربما يستفزها ما أقول، وتدَّعي أن هذا لا يحدث على الإطلاق، فلم نرَ بيتًا مسلمًا به صورة للعذراء، ومن الصعب أن يحتفظ مسلم بصورة لها في أوراقه، وما أقوله عن وجودها على صدور البنات ليس إلا أكذوبة، فلا ظل لها في الواقع.

السيدة مريم العذراء من زاوية خاصة تمثل حالة مصرية متفردة، تجمع المسلمين والمسيحيين على أرضية عقيدة واحدة، قد تختلف التفاصيل بعض الشيء، لكن المعنى الكبير الذي يظلل الجميع واحد، فَبَرَكة العذراء حق لكل المتعبين أيًا كانت قبلتهم، وليس عليهم حرج عندما يرفعون أيديهم إلى السماء دافعين بها، راجين الله بفضله ومكانها ومكانتها.

رأيت مسلمات كثيرات تحاصرهن السيدة العذراء.

وجدتها حاضرة في حياتهن أكثر من أي امرأة أخرى.

وعندما تبحث عن السر لا تجده دينيًا في المقام الأول، فالعقيدة في قلوب أصحابها محسومة سواء بالتأكيد أو النفي، لكن المشاعر التي تظلل علاقات المسلمات بالعذراء أمر آخر، لا يستطيع أحد أن يحسمه لا بآية ولا بحديث، فالحكايات الحقيقية التي يعتقد البعض لفرط عظمتها أنها أسطورية، تدفعنا إليها، مهما حاول البعض تأكيد بشريتها، وأنها لا تملك للناس ضرًا ولا نفعًا.

ما الذي يمكن أن تفعله أمام من يؤكد لك أنه شفي ببركتها؟

ما الذي تقدر على أن تقوله لمن يجزم لك بأنها كانت وراء فك كربه؟

ما الذي تستطيع تقديمه لمن وقفت بين يديه عاجزًا، بينما يحكي لك عن تجلي العذراء لعينيه قبل أن تتجلى لقلبه؟

يمكن أن تصمت تمامًا، مكتفيًا بالبحث عن السر.

هل هو الوجع الذي رأته العذراء، وهي تلد وحيدة مجردة إلا من رعاية الله؟

هل هو القلق الذي طغى عليها وهي لا تعرف كيف ستواجه قومها، وهي التي أصبحت أمًا بلا زوج؟ ماذا ستقول لهم؟ وكيف تقنعهم بما أتت؟ وهل يمكن أن يصدقوها؟ أم أن شكهم سيمزقها بنظرات الريبة والارتياب؟

هل هو الحزن الذي صاغ حياتها بعد أن شهدت بعينيها آلام ابنها دون أن تكون قادرة على التخفيف عنه، وهي التي لم تكن تطيق عليه النسيم يجرح خديه ويدمي بنانه؟

كل ذلك قد يكون مصدر المصريات وهن يبحثن في حنايا خيالهن لرسم صورة السيدة العذراء.

فماذا تنتظر منهن والحزن يعترض طريقهن كل صباح.

يبحثن في دفاتر الزمن باحثات عن منبع قوة دون خذلان.

يبحثن في ذاكرة الأيام عن سند دون هجران.

يبحثن في أوراق الحياة عن معين دون نكران.

فالذين يسوقون بالعذراء في طريقهم الذي يسيرون فيه ونهايته الله، يدركون حقيقة وضعها، إنهم يتشفعون بها عنده.

حدثوه عن علاقة المصريين الخاصة بالله.

قولوا له إن المصريين يأخذهم العشم حتى آخره، فيسوقون أمام

رجائهم من الله بأسماء كل أوليائه وأهل الخطوة والحظوة لديه، ولا يجدون في ذلك حرجًا أبدًا، بل لا يعتقدون أنهم في ذلك يمكن أن يكونوا متجاوزين في حق ربهم أبدًا ، وكما ينبغي، وكما يجوز، وكما يستحق أيضًا قولوا له لا تقف عند حدود المصريين مع من يتعاملون معهم على أنهم أصحاب كرامات ومعجزات، لأنهم يعرفون أن هذه الكرامات والمعجزات مدد من الله، وهم أنفسهم الذين يهتفون من قلوبهم: مدد بلا عدد.

فهل تدرك المعنى الذي تترجمه أرواحهم أم أنك لا تفقه ما تقول؟

قولوا له إن صورة السيدة مريم على صدور المسلمات تمنحهن الراحة.

وهي راحة إنسانية تجمع في أطرافها رحابة الإنسانية كلها.

استوقفتنى سيدة مسلمة في كنيسة «المغيثة».

لكن قبل أن أروي لكم ما قالته، ألا تريدون معرفة قصة «المغيثة»؟

إنها هي بالتحديد الكنيسة الأثرية التي بنيت في القرن السادس الميلادي.

في مكانها بحارة الروم بقلب القاهرة القديمة كانت السيدة مريم قد مرت به، حاملة طفلها الصغير يسوع، هاربة به من أنياب أعدائه.

كان العطش قد استبد بها، شربت من بئر «البلسم»، وهي البئر التي تروي كل من به مرض أو حمى، إذا استحم من مائها برئ وعوفي، ثم استراحت تحت ظل شجرة، عُرفت من يومها باسمها حتى اليوم.

لا تتعجب من الاسم «المغيثة» فقد حصلت الكنيسة، التي بنيت على بئر البلسم، على اسمها من ريح السيدة التي تغيث من يستجير بها... ولم يكن غريبًا أن يلجأ إليها جميع البطاركة منذ القرن الحادي عشر، ويأخذون منها مقرًا لقضاء خلواتهم، ورفع صلواتهم إلى الله وقت المحن والتجارب... وما أكثرها لم أسأل السيدة المسلمة عن اسمها

الاسم هنا لن يكون فارقًا أبدًا قرأت في عيني سؤالا: ما الذي تفعلينه هنا، وما كل هذا الشغف الذي تتحركين به؟

ودون أن أتحدث، قالت لى إنها ظلت لسنوات طويلة محرومة من الإنجاب، جربت كل شيء، ذهبت إلى الأطباء، لجأت إلى الأولياء، لكن لم يجبر بخاطرها إلا السيدة العذراء.

جاءت السيدة المسلمة إلى حرم السيدة مريم وكلها عشم فيها، وقفت أمام صورتها، بكت، قالت لها: إيدك معايا يا عدرا، وبعد شهر واحد أتم الله عليها نعمته وأصبحت حاملا، فقطعت عهدًا على نفسها أن تعود إلى العذراء كل عام في اليوم الذي مدت لها يدها فيها، حاملة معها طعامًا تطعم به المحتاجين حبًا وكرامة في السيدة مريم.

لن يقدر أحد على هذه السيدة المسلمة.

لن يستطيع أحد تغيير عقيدتها أو لنقل إحساسها.

الإحساس هنا أقوى.

الإحساس الذي يمكن أن يكون دليلًا حاسمًا وقاطعًا ونهائيًا، على عمق من يعرفون أن هناك رمزًا لمغالبة الحياة، فمهما كانت الحياة قاسية وجافة يمكننا الانتصار عليها، كما انتصرت مريم.

إنها ليست امرأة بقدر ما هي روح وقلب وضمير.

وكل ما نحتاجه إذا كنا منصفين، هو الروح والقلب والضمير.

تذكر انك حملت كتاب مريم المصرية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

***

ميراث الحزن

يمنح كل اسم من نفسه نصيبًا لصاحبه أو صاحبته.

أعتقد أن الأمر ليس قدريًا، بل تفعله التجارب معنا، وحدها تستطيع أن تثبت هذه القاعدة أو تنفيها، تدلل عليها أو تجعلها خاطئة تمامًا.

ليس ضروريًا أنَّ مَن يحمل اسم (رزق) أن يكون رزقه وفيرًا، وليس شرطًا أن التي اسمها (سيدة) أن تكون عزيزةً مكرَّمة؛ يمكن أن يكون الاسم على عكس حالة وتجربة صاحبه، لكننا تعودنا أن نتفاءل ونتشاءم من الأسماء، وربما كان هذا سببًا في حرصنا على اختيار أسماء أولادنا وبناتنا باهتمام شديد؛ فهذا بعض من حقوقهم علينا.

عمقنا الحضاري جعلنا في مصر أسرى لدلالات الأشياء ومعانيها، وما تشي به من أفكار وأحلام وآمال وطمع في المستقبل، الذي ندرك تمامًا أنه بيد الله، مهما تصورنا أننا قادرون على صياغته بالطريقة التي نريدها.

هذا بعض مما نلاقيه راسخًا في يقين المصريين وثقافتهم وربما عقيدتهم؛ ولذلك فإننا نعتقد اعتقادًا يقينيًا بأن من تحمل اسم مريم، لا بد أن يكون لها من أحزان مريم الكبرى نصيب، يتحسبون لذلك جدًّا، ولا يترددون عن رواية الحكايات التي تؤكده وتدل عليه.

الغريب أننا ورغم ذلك لا نتردد عن إطلاق اسم السيدة المباركة على بناتنا.

رزقني الله بابنة واحدة، أذكر أنني مع شريكة عمري لم نفكر في اسم آخر نطلقه عليها، لم تكن لدينا بدائل، لم خطر على بالنا اسم آخر.

في لحظة واحدة عندما سألنا أنفسنا عن الاسم الذي سنختاره لمولودتنا، قلنا: مريم.

لم يكن بيننا اتفاق أو محاولة لاختيار من بين أسماء أخرى.

أذكر أننا كنا تناقشنا ذات مرة في حكاية ميراث الحزن هذا الذي تحصل عليه كل مريم من مريم الكبرى، وحكينا لبعضنا البعض ما يؤكد ما نذهب إليه، لكن هذا لم يقف حائلا دون اختيار الاسم، ليتأكد لدينا أن حب تجربة السيدة العذراء، والإعجاب بها، يمكن أن يهزما أي أفكار يمكن أن تكون خيالية أو غارقة في التشاؤم والخوف من المستقبل... ثم إن هناك مريمات كسرن القاعدة، فلمَ لا تكون مريمتنا واحدة منهن؟

أعرف جيدًا أن المسلمين يعتزون جدًا باسم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

يطلقونه على أولادهم، ملتمسين خير الاسم، وما يضمه بين حروفه من أمل في أن ينال صاحبه بعضًا مما ناله حامله الكبير.

وأعرف أنهم يعتزون أيضًا بأسماء النساء اللواتي أحطن به في حياته السيدة خديجة التي وقفت إلى جواره وكانت سنده ودليله والسيدة عائشة التي قال إنها أحب النساء إليه، وأوصى أن نأخذ شطر ديننا عنها، وأشار إليها بأنها الحميراء .

والسيدة فاطمة ابنته وشقيقة روحه التي قال بحسم إن من آذاها فقد آذاه.

لكن هذه الأسماء ورغم كرامة صويحباتها فإنها لم تستطع أن تغلب اسم مريم أبدًا، فهو الأكثر انتشارًا، وأعرف أن كثيرين ممن يطلقونه على بناتهم لم يفكروا في اسم آخر، فهو يلتصق بقلوبهم، وتهفو إليه أرواحهم وتنعم به نفوسهم.

لن تجد اسم مريم منتشرًا بهذه الصورة في أي دولة عربية أو إسلامية، كما هو منتشر في مصر، فيما أعتقد، ليس الاسم الصريح فقط، ولكنه منتشر بتنويعاته: ماريا، ماري، مارينا، ماريانا، ميري.

يمكن أن تُلجئك هذه الحالة إلى محاولة للبحث عن تفسير.

وقبل أن ترهق نفسك في البحث ومحاولة الإجابة عن سؤال: لماذا؟

سأقول لك: ربما لأن السيدة العذراء لم تكن جزءًا من تاريخنا الديني فقط، رغم تداخله وتفاعله وتنوعه وخصوصيته، ولكن لأنها كانت جزءًا من تاريخنا الحي، فقد مرت من هنا.

لم يكن مرور السيدة العذراء في الزيارة التي نطلق عليها «رحلة العائلة المقدسة» مرورًا عابرًا، بل كان دراميًا في تفاصيله.

جاءتنا السيدة العذراء هاربة وخائفة وقلقة ومتوترة، تضم وليدها الصغير إلى صدرها، علها تحميه من الموت الذي يرفرف من حوله، ويسعى خلفه، ليحصد حياته التي لم تكن زهورها تفتحت بعد، ولأنها كانت خائفة بما يكفي؛ فقد أحاطها المصريون، ليس برعايتهم وحمايتهم فقط، ولكن بحبهم أيضًا.

اجتهد كثيرون من الخبراء والدارسين والمؤرخين في رصد رحلة السيدة العذراء وصغيرها إلى مصر، صنعوا الخرائط لخط سيرها، حددوا بدقة الأماكن التي حلت بها ببركتها.

فقد جاءت السيدة مريم مع طفلها الصغير يصحبهما يوسف النجار، من بيت لحم إلى مصر، حسب رواية إنجيل متى، هربًا من الملك هيردوس الذي تخوف من انتزاع ملكه على يد المولود الذي أخبرتهم النجوم أنه سيكون الملك، وهو ما يؤكد المجيء الثاني، فأراد قتله عن طريق المجوس، ولما فشل في العثور عليه، قرر قتل كل أطفال بيت لحم دون السنتين

هنا تدخل الوحي الذي تجسد ليوسف النجار حلمًا، قال له من آتاه، خذ الطفل وأمه واهرب بهما إلى مصر، التي ظل بها حتى مات هيردوس فعاد بهما مرة أخرى إلى الناصرة

ليس لديك مانع بالطبع من أن نفتح إنجيل متى.

ستقرأ فيه: عندما جاء المجوس بحثًا عن يسوع، ذهبوا إلى هيردوس

الأول في أورشليم، ليطرحوا سؤالًا عن مكان الوليد ملك اليهود، أصيب هيردوس الأول بجنون العظمة أن الطفل سيهدد عرشه وسعى لقتله، أطلق هيردوس مذبحة الأبرياء على أمل قتل الطفل.

في النص المقدس «وبعدما انصرفوا -يقصد المجوس- إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلًا: قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، لأن هيردوس مزمع أن يطلب الصبي ليقتله».

لكن كيف عرفنا مسار العائلة المقدسة؟

تقول الرواية إن العذراء مريم ظهرت للبابا ثيوفيلوس الثالث والعشرين، من باباوات الكرازة المرقسية بالإسكندرية-تنيّح في العام **404** ميلادية- وأخبرته بتفاصيل رحلتها إلى مصر، مرورًا بعدة مدن في الدلتا والصعيد، وعندما استيقظ من نومه دوَّن ما أملته عليه العذراء، لتصبح هذه الرؤيا المصدر الأول والوحيد للرحلة.

أخبرنا التاريخ الكثير عن المكان، لكنه لم يحدثنا عن الإنسان.

نحن لا نعرف كثيرًا عن الذين استقبلوا السيدة مريم العذراء.

هؤلاء الذين فتحوا لها بيوتهم لتأمن، وقدموا لها طعامهم لتأكل، وأحاطوها بدفئهم حتى لا تشعر بأنها غريبة، بل صاحبة بيت.

هؤلاء في النهاية أجدادنا، نفتقد اسمهم ورسمهم، لكن ما فعلوه معها يبقى ميراثًا لنا، نتحرك به تجاهها حتى الآن، لا ننساه ولا ننساها.

هل يمكن أن نعتبر هذا هو سر المصريين مع السيدة مريم العذراء، بعيدًا عن سرنا الديني معها؟

أعتقد أن شيئًا من هذا صحيح جدًا.

فهي عندنا لا تزال الضيفة العزيزة التي لا تنقطع حفاوتنا بها ولن تنتهي، فالمصري الذي يكرم ضيفه للدرجة التي يقول له فيها إنه يمكن أن يذبح له ولدًا من أولاده، ما زال يؤكد للسيدة العذراء أنها لم تكن

ضيفة قطُ، بل واحدة من أهل البيت، لها ما لهم دون أن يكون عليها ما عليهم

هل تسمحون لى أن أصطحبكم إلى تصور خاص؟

مؤكد أن المصريات كن أقرب إلى السيدة مريم، استقبلنها ورحبن بها، وحفظن سرها وسر ولدها ولأنها كانت الأقرب إلى أمهاتنا، فيمكن أن نتعامل مع السيدة مريم على أنها «خالة المصريين» جميعًا، وللخالة منزلة لا يستطيع أن يجحدها أو يتنكر لها أحد، فالخالات أمهات... والأمهات وتد البيوت وعمادها.

يبقى حديثنا عن ميراث الحزن الذي تركته السيدة العذراء وراءها.

ذاك الحزن الذي لفَّها وهي تتلقى الخبر بأنها ستكون أمًا دون زواج، مؤكد أنها فرحت أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، اختارها هي من بين كل النساء، لتكون موضع سره ومكمن كلمته، لكن أخذتها المفاجأة؛ فكيف لها وهي الصبية الصغيرة، مواجهة أهلها وناسها ومجتمعها.

«قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا».

«قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا».

ذاك الحزن الذي أحاط بها وهي تتلفت خلفها خوفًا على ابنها الذي هربت به حتى لا تناله يد الردى.

ذاك الحزن الذي غلبها وهي تقف عاجزة وحائرة وقليلة الحيلة، تطاردها دموعها وهي تشهد ابنها على الصليب، يقدم نفسه فداءً للبشرية كلها، لم يرحمه أحد ولم يتشفع له أحد.

ميراث الحزن هذا، الذي يعتقد المصريون أن كل مريم صغيرة لا بد أن تحصل عليه، على طريق وطريقة مريم الكبيرة، ليس إلا أسطورة،

يمكن أن نضعها إلى جوار الأساطير الكثيرة التي ارتبطت باسم ستنا العدرا، فكل منا يحمل قدره وحده، ويسير إلى مصيره وحده، لكنها المحبة التي تجعلنا نحمل أحزان من نحب في قلوبنا، حتى نثبت له أننا من مريديه.

وكلنا في المحبة مريدون يا ستنا.

***

العذراء ليست شجرة

دخل عليّ صحفي زميل، ودون مقدمات وجدته يتحدث بحماس عن شجرة العذراء في منطقة الزيتون التي ينزل منها الزيت، ويتجمع حولها آلاف المواطنين الذين جاؤوا إليها من كل مكان، دون أن يعرف أحد من أخبرهم ولا كيف تجمعوا في ساعات قليلة.

كانت دهشة الزميل متجددة، لا يبددها الوقت الذي استغرقه حتى وصل إلى مكتبي بالجريدة التي كنت أتولى مسؤولية تحريرها، ولا إعادته للحكاية التي كان حريصًا على روايتها لكل من يقابله.

كان في كل مرة يزداد حماسًا ويقينًا، بأن ما يحدث في منطقته، وبالقرب من بيته، معجزة كاملة بكل المقاييس، ولما شكك بعض الزملاء فيما يقوله محتجًا بأن ما يحدث ليس إلا بعضًا من الخرافات التي يدمنها المصريون، وجدته غاضبًا، فما رآه بعينيه لا يمكن أن يكون خرافات أبدًا.

لم يكن الزيت الذي ينزل من الشجرة ورآه بنفسه هو ما جعله يعيش هذه الحالة، التي مؤكد أنها كانت روحانية تمامًا، ولكنه كان يتساءل: من أين عرف الناس ما جرى، وتجمعوا على وجه السرعة.

وقتها لم يكن الخبر انتشر من الأساس، ولم تكن لدينا منصات التواصل الاجتماعي التي تستطيع إذاعة الخبر في دقائق قليلة، فيعرفه الملايين دون مجهود يذكر... وكانت هذه في حد ذاتها معجزة أضافها

الزميل الصحفي إلى معجزة نزول الزيت من شجرة العذراء.

لم أجد أمامي في حقيقة الأمر إلا أن أتفاعل مع ما قاله الزميل المتحمس الذي كان يتحدث بيقين، وإلا أصيب بالإحباط الشديد، فقد شعرت بأنه يحتاج فقط لأن يصدقه أحد... أي أحد.

وضعت القصة بتفاصيلها على الصفحة الأولى، وهو ما احتج عليه البعض بأنني بما فعلته روجت لخرافةٍ تناقض العقل.

فشجرة الزيتون ليست إلا شجرة عادية، حتى لو ارتبط اسمها بالسيدة العذراء.

وليس معنى أن بعضًا ممن تلمسوا منها البركة وقضيت حاجاتهم أنها شجرة مباركة، أو أن العذراء مدت يدها إليهم ومسحت على جباههم وطبطبت على ظهورهم.

فتحت كتب التاريخ لأعرف قصة هذه الشجرة وحقيقتها.

توقفت قليلًا أمام المؤرخ الإسلامي تقي الدين المقريزي، فوجدته يقول إن العائلة المقدسة حطت رحالها عندما قدمت إلى مصر بالقرب من عين شمس ناحية المطرية، وهناك استراحت إلى جوار عين ماء، غسلت فيها ثيابها وثياب طفلها الصغير.

تصادف وهي تفعل ذلك أن تدفق الماء على الأرض من حولها، فأنبت الله نبات «البلسان»، وهو نبات يستخرج منه «عطر البلسم» ولم يظهر إلا في هذا المكان، وهناك أزهرت شجرة عرفت باسم السيدة العذراء، تحولت إلى مزار ومكان للتبرك، وكان من الطبيعي أن تنسج حولها الأساطير، فمن يناجي السيدة أمامها تُقضى حاجته مهما كانت صعبة وعسيرة ومعقدة ومستحيلة.

ولك أن تعي ما قاله البعض من أن شجرة العذراء كانت تجعل، ببركة السيدة الطاهرة، النساء ممن لا يستطعن الحمل حوامل.

في العام 1656 ميلادية جرت على الشجرة عوادي الزمن، أدركها الوهن وأحاط بها الضعف، فسقطت، ولا يسألني أحد: ولماذا لم تحمِها السيدة العذراء من الوهن والسقوط؟

فهذا ما جرى، وكان طبيعيًا جدًا أن يجري، فحكم الزمن لا يستطيع أن يرده أحد.

لم يترك الكهنة شجرة العذراء على حالها، أخذوا فرعًا من فروع الشجرة التي أسلمت أمرها لله، وقاموا بزرع الفرع بجوار الكنيسة المجاورة للشجرة القديمة، فنمت وتفرعت وعاد إليها بهاؤها، فهي فرع من أصل.

بدأت الوفود تتجدد على الشجرة قاصدين وجه السيدة العذراء، فالبركة بركتها والنعمة نعمتها والخير خيرها... فهي الشفيعة والمغيثة وجابرة الخواطر.

ومن بين ما يحيط الشجرة من حكايات، أنه وأثناء الحملة الفرنسية على مصر 1798-1801، زار جنود الحملة شجرة العذراء، وكتب بعضهم أسماءهم على فروعها بأسنة سيوفهم، وكان يقال إنه لكي تتأكد من ذلك، فليس عليك إلا أن تزور الشجرة لترى بعينيك .

أغلقت حكايات التاريخ، وما قاله المؤرخون، وما سجلوه في كتبهم.

عدت إلى حالة زميلي التي بدت روحية تمامًا، وهو يتحدث عن نظرات الحاجة والضعف والعوز في أعين من أحاطوا بشجرة العذراء، محاولين تلمس الزيت بأيديهم، فقد أرادوا الحصول عليه، ثقة منهم بأن فيه البركة كلها.

لم أنكر على زميلي حالته، ولم ألتفت لمن قالوا لي إنني أروج بما نشرته الخرافات التي لا تليق بمن يعمل بمنهج علمي رصين، ومن يفكر بمنطق لا يمكن أن يتسلل إليه الخيال ولو بقيد أنملة.

عقليًا سلمت لمن انتقدوا النشر تمامًا.

لكن عاطفيًا لم أتماهَ معهم.

فرغم أنني كنت أعرف عن ذلك الكثير، لكنني لا أستطيع إنكار الحالة الروحية التي تتشكل من خلالها علاقة المعوزين بالسيدة العذراء، هؤلاء الذين يذهبون إلى كنائسها، وكل ما يرتبط بها، واضعين همومهم بين يديها، طالبين منها أن تحنو عليهم بنظرة، وهي النظرة التي يكون لها أثر السحر، وعندما يحكم القدر براحة المتعبين، لا ينظرون إلى الأسباب المادية التي يحكم الله من خلالها في كونه، ولكن يعتبرون أن بركة العذراء هي التي حلت عليهم.

كثيرة هي الأشياء التي تحيط بنا وتفتقد المنطق، نبحث لها عن تفسيرات عقلية فلا نجد، نفتح كتب العلم لتعيننا على استيعاب ما يجري، لكنها تظل صماء لا تنطق، وهو ما يجعلنا نستسلم تمامًا.

معجزة السيدة العذراء ليست في شجرة تحمل اسمها، فالعذراء ليست شجرة.

ولا في صورة معلقة على جدار كنيسة... فليست بالصور وحدها تتحرر القلوب المعلقة على أوتار الحيرة.

ولا في أيقونة تطل بوجهها الصبوح على من يتطلعون إليها منها... فالأيقونات ليست إلا دليلًا لطريق طويل تنتظر في آخره من تهفو نفوسهم إليها.

معجزة العذراء الحقيقية في الإيمان بها، فآمنوا بها تبسط يديها لكم.

تذكر انك حملت كتاب مريم المصرية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

التجلي على كنائس الفقراء

يمكنني-كما يمكنك أيضًا- أن نستسلم ببساطة لما يتردد عن معجزة تجلي العذراء مريم عليها السلام في مصر، وهو التجلي الذي يأتي غالبًا في الأوقات المأزومة والظروف الصعبة والأحوال القاسية التي تلفها المعاناة، تلك التي ينتظر فيها الموجوعون من ينظر إليهم ويحنو عليهم ويخفف أحمالهم الثقيلة، فإذا بها ومن دون مقدمات أو الحاح في الدعوة تطل عليهم قائلة للجميع: أنا معكم.

الاستسلام هنا مريح جدًا، سيمنحني بعضًا من إعجابكم... وسيمنحكم بعضًا من راحة الضمير.

لكن من قال لكم إنني أبحث عن الإعجاب؟

أنا أسعى وراء حوار مع عقولكم دون تجاهل بالطبع لما يسكن قلوبكم من أحلام، نختلف ونتفق، نتحاور ونتجادل، نصرخ في وجوه بعضنا البعض محتجين ورافضين ومستعرضين ما لدينا من حجج وتفسيرات وتبريرات، لكننا لا نفترق أبدًا، لأننا نبحث عن طريق واحد يضمنا، نعرف أنه يسعنا جميعًا، لو قررنا ذلك.

هو الطريق نفسه الذي لا يجب أن نلتفت عنه أو نتركه يتفلت من بين أيدينا.

تنتظرون مني أن أقول لكم مثلًا إن تجليات العذراء الكثيرة التي سجلتها الذاكرة المصرية، وكان أشهرها تجليها على كنيسة العذارء بالزيتون في العام 1968 بعد هزيمة تجرع فيها المصريون طعم العلقم، استطاعت أن تجمع المصريين على قلب رجل واحد، يهتفون لها ويرجون عطاءاتها التي لا تنفد أبدًا، متناسين تمامًا ما يفرقهم، فهم ما اجتمعوا عليها إلا بما يجمع بينهم.

لن أقول لكم ذلك أبدًا، ليس عن تعصب أو تمييز أو حتى عناد.

ولكن عن واقع شهدته بنفسي، لن أدعي أنني وقفت كثيرًا في انتظار

العذراء أمام كنائسها، ولكنني خضت التجربة أكثر من مرة، ما عشته منها أعرف ما جرى فيه، وما لم أعِشه تصفحت أوراق الصحف التي دوَّنته، فأصبح جزءًا من التاريخ الحي الذي يأبى أن يغادرنا ظهور السيدة مريم العذراء في أي مرة من مرات التجلي التي وثّقها المصريون بالساعة واليوم والشهر والسنة، لم يكشف عن قوة النسيج الوطني المصري قطُّ، ولم يكن صحيحًا أنه نفى أي توترات طائفية تعيشها مصر.

صحيح أنه في التجمعات الحاشدة التي التفت حول الكنائس التي قيل إن العذراء مريم تجلت من فوقها، وقف الجميع في انتظارها، لا فرق بين مسلم ومسيحي، اعتقد البعض أن هذا يمثل نفيًا قاطعًا لكل ما يقال عن الحالة الطائفية في مصر، وعن حالة الاحتقان الهائلة التي يشهدها المجتمع، فها هم المصريون جميعًا جاؤوا من كل فج عميق، وقفوا أمام الكنيسة الموعودة بالتجلي، عندما تطل في وجوههم لا تستطيع أن تعرف مسلمهم من مسيحيِّهم.

هل أصف لكم ما جرى على سبيل المثال في تجلي العذراء فوق كنيسة العذراء في الوراق؟

ولمَ لا... فما جرى هناك يمكن أن يعيننا كثيرًا على فهم ما أقول وأقصد وأذهب إليه.

كان ذلك في ديسمبر 2009.

البرد حاكم، لكن الزحام الذي كان لم يمنح أحدًا فرصة للشعور به أو الشكوى منه.

أمام كنيسة الوراق تمسك الأقباط بإظهار مسيحيتهم، قاموا بتوزيع مطبوعات بها تماجيد للسيدة العذراء مثل ترنيمة «السلام لكِ يا مريم»، وقاموا بعزف ألحان كنسية مميزة، منها لحن «خين إفران»، ومعناه «يا الله»، ولحن «أكسيا»، ومعناه «مستحقة»، لم يكن العزف فرديًا، فقد كوَّن الشباب القبطي مجموعات للغناء والرقص مرددين

التراتيل والترانيم.

المسلمون احتفلوا بالسيدة العذراء على طريقتهم أيضًا.

أمسكوا بالقرآن الكريم وبدأوا في قراءة سورة مريم، فهي المرأة الوحيدة التي وضع اسمها على إحدى سور القرآن الكريم، التي تصل إلى **114** سورة.

استحضروا لحظة الألم الكبرى التي مرت بها.

«فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًا، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا».

كان طفلها المعجزة الذي جاء من حمل معجز يعلم أن طاقتها الإنسانية تعجز عن تحمل الحزن، فناداها ألا تحزن، فهي مختارة لما يعجز عن فهمه أو تقديره البشر.

الفروق بين المسلمين والأقباط في الاحتفاء وانتظارالسيدة العذراء، كانت أقل حدة من الفروق بين طوائف المسيحية.

البروتستانت، وانطلاقًا من عقيدتهم، أنكروا ظهور العذراء جملة وتفصيلًا.

يذهبون إلى أن الكتاب المقدس لم يرد به أي نص أو آية تدل على أن العذراء ستظهر مرة أخرى، صحيح أن الكتاب المقدس أشار إلى أنها مكرمة وعظيمة، لكن مسألة التجلي هذه لم تكن مطروحة مطلقًا.

أحدهم قال لي: لا نقبل أبدًا أن تكون السيدة العذراء مجرد ساعي بريد، تحمل رسائل من السماء إلى أهل الأرض، فحاملو الرسائل انتهت مهمتهم إلى الأبد.

يستسلم البروتستانت إلى التفسير العلمي والنفسيلظهور العذراء.

تجليها عندهم ليس إلا نوعًا من الأوهام التي يستعصم بها أصحاب المشكلات والهموم والمظلومين في الأرض، سواء كانوا أقباطًا أو مسلمين، مطمئنين أنفسهم إلى أن ظهورها فيه إشارة إلى اقتراب رفع الظلم، فهي تظهر حتى تخفف عنهم همومهم وأحزانهم، وتقف إلى جوارهم ممثلة للسماء في مواجهة جور أهل الأرض.

أحد قادة الطائفة الإنجيلية يعتصم برأيه الذي لا يرى أي إمكانية لتجلي العذراء، متحملًا في ذلك هجوم أبناء الطائفة الأرثوزكسية، وهو الهجوم الذي يخرجه بالجملة من صفوف المسيحيين.

يرى أن التجلي صناعة بشرية، احتاج الفقراء والمظلومون والمكلومون والعجزة والحيارى إلى معجزة، فصنعوا حكاية تجلي العذراء... ولا أكثر من ذلك.

هو الوهم إذن؟

سألته، فقال لي: هو الوهم ولا شيء غيره، لكن من قال لك إن البشر يمكن أن يتراجعوا عن الوهم بعد أن يكتشفوه، وهم الذين يصنعونه بأيديهم ويرتاحون إليه.

ما يذهب إليه القائد الإنجيلي قد يكون في حاجة إلى دليل.

لا تتعجل الأمر، اسمعه كما سمعته.

يقول: هل فكر أحد لماذا لا تتجلى العذراء إلا في أوقات الأزمات فقط، وفوق كنائس الفقراء وحدهم، فقد ظهرت في الزيتون والوراق وعزبة النخل وشبرا، ولم تظهر مثلا في المناطق الراقية التي يسكنها الأغنياء، فلم نجدها تتجلى في الزمالك أو المهندسين أو مصر الجديدة أو أرض الجولف؟

للسؤال منطقه، ولصاحبه فكرته التي يمكن أن تتفاعل معها بجدية

فالعذراء لا تظهر إلا للفقراء؛ لأنهم ببساطة هم الذين يريدونها أن

تتجلى لهم.

هل قالوا إن الحاجة أمُّ الاختراع؟

قالوا ذلك فعلًا.

لا يمكنني-كما لا يمكنك أيضًا- أن نتجاهل منطق الإنجيليين، لكننا أيضًا لا يمكننا أن نستسلم له، فالأمر ليس في النهاية سوى آراء ووجهات نظر.

نحن في الوراق لم نغادرها بعد.

لم تكن الكنيسة الأرثوذكسية قد حسمت أمرها بعد.

كانت قد اعترفت بتجلي العذراء على كنيسة الزيتون في العام 1968 ، عبر بيان رسمي، لكنها لم تفعل الأمر نفسه في تجلي الوراق على الفور البابا شنودة (تنيَّح في مارس من العام 2012) لم يكن حاسمًا في البداية، فلم يقطع بمسألة الظهور من عدمه، كان عائدًا من رحلة علاجية له في أمريكا دع عنك تنذُّر البعض عليه، من أنه طالما يعتقد في ظهور العذراء، وهذا الظهور في حد ذاته يأتي لعلاج المرضى، فلماذا تركها البابا في مصر، وذهب يطلب الشفاء عند الأطباء في أمريكا؟

ولماذا لم يسلم نفسه للعذراء كي تعالجه ما دام أنه يوقن بقدرتها على شفاء المرضى، وسلم نفسه للأطباء الذين يتعاملون بالعلم ولا يعتمدون على المعجزات؟

لكن تأمل فقط ما قاله البابا وهو في المطار عندما سُئل عن ظهور العذراء.

قال إن العذراء تحب مصر.

لم يقُل ظهرت ولم يقُل لم تظهر.

لكنه في عظته الأسبوعية يوم الأربعاء الذي أعقب ماتردد عن تجليها،

أكد ظهور العذراء، وهاجم المشككين والمتشككين فيها، وخص البروتستانت بالهجوم.

قال البابا نصًا: الإخوة المسلمون يؤمنون ببتولية العذراء وبأن الله اصطفاها على سائر العالمين، وأغلب المسلمين يحبون ويكرمون العذراء مريم أكثر من بعض البروتستانت المسيحيين.

وكما مارس البابا شنودة تمييزًا طائفيًا في تفسير الظهور، أخرج به البروتستانت من المسيحية تلميحًا وليس تصريحًا، فإنه مارس تمييزًا آخر يدخل في باب الخرافة أكثر عندما قال نصًا أيضًا: البسطاء يستطيعون رؤية العذراء، أما المعقدون فلا يرونها، ومن لا يؤمن بظهورها فإنها بدورها تمنعه من رؤيتها.

***

اطلب العذراء تتجلَ لك

لا يمكنني أن أصل بالطريق إلى آخره وأقول لك إن ظهور العذراء مريم مجرد خرافة.

القلب لا يتحمل هذا النكران، فبه نتعالى على ملايين ممن يوقنون بتجليات السيدة مريم.

لكن العقل لا يركن إلى التسليم النهائي بالأمر... وآه من هذا العقل الذي يؤرقنا ولا يمنحنا أبدًا راحة البال والخاطر.

هذه فيما أعتقد الأزمة الكبرى التي يعيشها الإنسان، ليس بسبب تجلي العذراء من عدمه بالطبع، ولكن بسبب الصراع بين عقله وقلبه طول الوقت.

النزاع الأبدي الذي لا ينتهي بين ما يريده الإنسان بالفعل وما يحتاجه.

آدم استجاب ونزع التفاحة من الشجرة المحرمة بعاطفته، رغم أن

عقله كان يحذره.

لم يكن فعليًا في حاجة إلى هذه التفاحة، لكنه كان يريدها.

في تجلي العذراء تتبدد الرغبة وتتبدى الحاجة.

فأصحاب الحاجات هم الذين ينتظرونها، لكن البشر العابرين الذين لا يعانون، ربما لا يعيرون الأمر اهتمامًا، وإذا اقتضى الأمر وتابعوه، فليس أكثر من استجابة لواقعية سحرية تخرج من بين أغلفة الروايات إلى أرض الواقع.

رغم قناعتي بكل ذلك، فإن الملايين الذين ينتظرونها لن يروق لهم ما أقوله، وسيكون طبيعيًا ومن حقهم تمامًا أن يرفضوه من بابه، ولن يكون أمامي إلا أن ألتمس لهم العذر الكامل في ذلك؛ لأنني لا أملك ما أقدمه لهم.

اللافت في الأمر وقد يحتاج إلى بعض من التأمل، أن من بين من ينتظرون تجلي السيدة العذراء، وهنا لا أفرق بين المسلمين والمسيحيين، فهم في النهاية يجمعهم دين مصري له ملامحه الخاصة جدًا، لا يتعاملون مع هذا الظهور على أنه أمر معجز فقط، ولكنهم يتعاملون مع الأمر ببعض من البراجماتية التي لا تستطيع أن ترفضها، فهي أبدًا لا تصل إلى مرحلة النفعية، فقد قدمت لهم العذراء كما يقولون عندما تجلت خدمات جليلة.

تذكرون تجلي السيدة العذراء للبابا ثيئوفليس البابا الثالث والعشرين في تاريخ الكنيسة.

حدثتكم عما جرى منذ قليل.

لكن الأمر يحتاج إلى الإشارة إلى جانب مهم فيما جرى.

كان البابا ثيئوفليس على وشك السفر إلى دير المحرق، لتكريس الكنيسة المشيدة باسم السيدة العذراء هناك، وقد أخبرته في رؤيا له

بعد ظهورها له بكل الأماكن التي زارتها في مصر ومعها السيد المسيح ويوسف النجار، وأخبرته بتفاصيل الرحلة كلها من فلسطين إلى مصر إلى آخر نقطة في المنطقة التي أقيم فيها دير المحرق ثم العودة بعد ذلك إلى فلسطين، وأوضحت له الطريق الذي سارت فيه العائلة المقدسة ذهابًا وعودة إلى مصر.

الخدمة الجليلة التي قدمتها العذراء لم تكن للبابا فقط، ولكن لكل من يؤمنون بها، فعلى إثر هذه الرؤية قام البابا بكتابة كتابه عن الرحلة المقدسة الذي اعتمدته الكنيسة الأرثوذكسية، كمصدر رئيسي لرحلة العائلة المقدسة داخل مصر.

معرفة من يؤمنون بخط سير العائلة المقدسة لم يكن سندًا لدعم الإيمان بنضالها من أجل إنقاذ طفلها الصغير فقط، ولكنه تحول مع الأيام إلى استثمار؛ فمشروع إحياء مسار العائلة المقدسة من المشروعات المهمة الذي يعني دخلا بالمليارات وآلاف فرص العمل وتنشيط حركة السياحة، فعشاق العذراء يهمهم أن يسلكوا الطريق نفسه الذي سلكته تقربًا منها وطمعًا في شفاعتها.

فالطامعون كثر... والذين يطلبون شفاعتها يزداد عددهم يومًا بعد يوم.

الانتفاع بتجليات العذراء لم يكن أمرًا ماديًا فقط، ولكنه كان دعمًا لكتاب المعجزات التي من شأنها دعم الإيمان لمن يتطلعون بأبصارهم إليها.

هل أصل بكم إلى الأنبا إبرام بن زرعة السرياني.

تاريخيًا هو البابا الثاني والستين في تاريخ الكنيسة.

تقول الرواية إن ظهور السيدة العذراء له، أعان القديس سمعان الخراز على معرفة المنهج الروحي، الذي من خلاله نقل جبل المقطم بمدينة الفسطاط في زمن المعز لدين الله الفاطمي، حيث تم نقل جبل

المقطم في القرن العاشر، عندما طلب المعز من الأنبا إبرام أن ينقل الجبل من مكانه إلى مكان آخر كما يقول الكتاب المقدس: إن كان لكم إيمان مثل حبة خردل، فقولوا لهذا الجبل أن ينقل فينقل.

لم يكن ظهور السيدة العذراء أمرًا خاصًا بها إذن، ولكنه كان يحدث مرتبطًا بظرف بشري، وبحاجة تؤرق الناس، وتأخذ عليهم حياتهم، كما حدث في 1968، عندما تجلت على قباب كنيستها في الزيتون بعد خروج مصر مثخنة بالجراح من هزيمة العام 1967، وكأنها فعلت ما فعلته لتقديم العزاء للمصريين فيما جرى لهم، دون أن يكون لهم ذنب في كل ما حدث.

الأمر نفسه حدث كثيرًا بعد ذلك بطرق مختلفة ومن زوايا متباينة.

فالمعجزة لم تحدث قطُّ لوجه الله فقط، بل كان وراءها ما يحركها ويسهم في صنعها.

لقد ارتضينا بمعجزات الأنبياء التي حدثت في حياتهم وتم إخبارنا عنها دون أن نراها.

صدقنا المعجزة التي أنقذ بها نوح عليه السلام الذين آمنوا به من الغرق.

وآمنا بالنار التي لم تحرق إبراهيم عليه السلام لمجرد أن الله أمرها أن تكون بردًا وسلامًا عليه.

وأشفقنا على الحوت الذي ظل محتفظًا بنبي الله يونس في بطنه أربعين عامًا دون أن يأكله، لأن الله لم يجعله رزقًا له وتخيلنا ناقة صالح وهي تخرج من الجبل، لتكون آية على أن دعوته لقومه إلى طريق الله، كانت برعاية مباشره من السماء .

وخضنا مع موسى عليه السلام صولاته وجولاته مع فرعون مصر، وصفَّقنا له وعصاه تلتهم حيات السحرة التي لم تكن حيات، وعندما شق البحر بعصاه ثم أعاده ليغرق فيه من تتبعوه ليقتلوه هتفنا له

مشجعين ومباركين.

وعشنا طويلًا مع نبي الله سليمان عندما جعل له الله من الجن خدمًا، ورحنا ننتظر العفريت من الجن الذي قال له أنه سيأتيه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، وضحكنا على منطق النملة التي سمعها وهي تحذر قومها من أن يحطمنهم هو وجنوده وهم لا يشعرون.

وراقبنا عيسى عليه السلام المولود من حمل بلا أب، وهنأنا من أحياهم بعد أن كانوا موتى، ومن أبرأهم من أمراضهم التي كان الشفاء منها مستحيلًا.

وحتى عندما قالوا إن النبي محمد لم تكن له معجزات كونية، صدقنا الروايات التي أشارت إلى أن جذع النخلة بكى عندما هجره إلى منبره... وأن الصحابة الكرام شربوا من نبع الماء الذي تفجر من بين أصابعه.

صدقنا كل ذلك لأنهم في النهاية أنبياء أرسلتهم السماء بكلمتها وتأييدها لتوصيل رسالتها، وذلك تحديدًا ما يجعلنا لا نصدق بسهولة أي معجزة تظهر بعدهم، أو كرامة لهم يحدثنا أحد عنها بعد موتهم.

وهو ما يجعلنا نسأل: لماذا ترتبط المعجزات بالسيدة مريم العذراء وحدها دون غيرها من الأنبياء؟

لماذا لم نسمع عن تجلي غيرها من الأنبياء؟

بل لماذا لم نسمع عن تجلي السيد المسيح نفسه؟

هناك من يرفع السيدة مريم فوق الأنبياء جميعًا، وهو ما يبرر لديهم انفرادها باستمرار معجزتها بعد وفاتها، لكن تظل هذه وجهة نظر لا يمكننا أن ننكرها... لكن لا يمكن لأحد أن يجبرنا على تصديقها على إطلاقها.

ما نطمئن إليه فعليًا وتحكمه الأسباب وقوانين الله في الأرض، أن البشر يعيشون حالة من العجز الدائم والمستمر والمركب، ولأن زماننا

يخلو من المعجزات فقد ساهم البشر في صنعها وصياغتها والترويج لها، ولا فرق في ذلك بين تجلي العذراء ومعجزات القديسين في تاريخ الأقباط، وكرامات ومعجزات الأولياء المسلمين الذين تنتشر أضرحتهم في كل مكان دون أن نعرف لهم أصلًا أو فصلًا.

إنها عادتنا التي لا نستطيع أن ننكرها.

فنحن نصنع الخرافة ونصدقها.

نصنع الولي ونتقرب إليه.

ننسج المعجزة ثم نتحدث عنها.

إنني لا أقول إن معجزات تجلي العذراء تتم فبركتها، فهناك من يستطيع أن يحلل ويفسر ويفحص الحدث وما يعقبه من أحداث، ويتحمل هو مسؤولية هذا الحكم العاصف، لكنني أذهب إلى أن معجزة ظهور العذراء تحدث داخل من رأوها، ثم اعتقدوا أنها كانت واقعًا، وفي كل مرة يتم تضخيم المعجزة، فالتضخيم في النهاية سيكون مفيدًا، فكلما كبرت المعجزة كانت فرصة تصديقها أكبر.

لقد تجلت العذراء في مصر لأول مرة في العام 1968، وهو التجلي الذي يتم النظر إليه حتى الآن على أنه الأهم والأكبر في تاريخ التجليات المريمية.

كان الظرف الذي رآها فيه المصريون مناسبًا: بلد مهزومة ومنسحبة تحتاج إلى من يسند ظهرها، فجاءت صاحبة القوة الكبرى لتجبر المنكسرين.

إذا أردتم أن تتجلى العذراء فليس عليكم إلا أن تقرروا ذلك.

هي لا تتأخر عمن يريد أن يراها.

العذراء وكما كل القديسين والأولياء يعيشون في داخلنا، نحن الذين نمنحهم حق التجلي، ونحن الذين نحجب عنهم حق الحياة...هذا وفقط.

ولذلك إذا أردتم أن تظهر لكم السيدة العذراء، فليس عليكم إلا أن تطلبوها من قلوبكم وبصدق.

لو فعلتم ذلك، فمؤكد أنها ستتجلى لكم.

وهذا في النهاية كل شيء.

***

آلم المصلوب... وأحزان المقهورة

لم يشغلني بريق سورة آل عمران عن بريق سورة مريم، لكنني لا أستطيع إخفاء انحيازي.

سورة «مريم» هي الأكثر تفضيلًا لدى المسلمين من بين سور القرآن الكريم، ربما تنافسها سورة «يوسف» بعض الشيء.

لكنني أعتقد أن درامية قصة السيدة العذراء وتشابكها أكثر ثراء من قصة النبي الذي تحالف عليه إخوته فحاولوا قتله، لكن الأقدار أبت عليهم ذلك.

قصة يوسف تصوغها المغامرات... أما قصة مريم فتنسجها المعجزات.

قصة يوسف تتسرب منها رائحة ملامح الحسد والغيرة والطمع والرغبة... وقصة مريم تتسرب منها علامات العجز والحيرة والقهر والدموع.

في سطور مريم يختلط الفرح بالحزن، ولأننا نملك أكبر ميراث من الأسى؛ فإننا نتماهى مع القصة الأكثر درامية، ليس في القرآن فقط، ولكن في الحياة جميعًا.

طبقًا للرواية القرآنية، تتوالى المواقف المدهشة، والمزلزلة في آن واحد.

«وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا».

هل يمكنك أن ترفع عينيك عن قراءة هذه السطور، ولتأتِ معي إلى حيث تقف السيدة العذراء تتلقى هذا الأمر الجلل، تعال أنا وأنت نتخيل ما جرى، نبحث في ملامحها عما أحست به.

ما الذي شعرت به السيدة العذراء في هذه اللحظة؟

هل فرحت بما سمعته؟

هل غضبت منه؟

هل تملكتها الحيرة فالتزمت الصمت ولم تخرج منها الكلمات القليلة التي قالتها إلا بصعوبة؟

هل فكرت فيما يحدث لها، وهل هو خيال أم حقيقة؟

أم استسلمت لما يراد بها ومنها؟

فهي لن تمنع شيئًا خطته الأقدار في كتابها، وعليه فلا داعي لأن تقاوم.

شيء من هذا لم يحدثنا أحد عنه، ولم تحدثنا هي أيضًا، فقد كان لديها ما هو أهم وأبقى ومؤكد أنه شغلها عن العالم كله.

«فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا».

هل يمكن أن نتصور قوة الجهاز العصبي لهذه السيدة؟

إنها تتعرض لما هو أكثر من الهول، ثم تجد من تلده يحدثها، ويبشرها

بأن الله سيكون معها.

معجزتان تتعانقان في لحظة واحدة على الأرض التي كانت قد هجرتها المعجزات.

سيكون طبيعيًا أن تقطع عليّ الطريق، وتقول لي: وما الذي يمكن أن يدهش السيدة التي ولدت دون اقتراب رجل منها، أن يحدثها من تحتها من ولدته؟

وما الذي يمكن أن يدهشها في حديثه إليها، وهو يؤكد لها ألا تخاف أو تحزن لأن الله سيقف معها؟

يمكن للأسئلة أن تتوقف قليلًا.

فالموقف الذي جمع السيدة العذراء بطفلها الصغير، يمكن أن يقودنا معًا إلى قانون جديد من قوانين مريم القرآنية، وهو قانون أيضًا يمكن أن يحل مشكلات كثيرة في حياتنا إذا أخذنا به.

بعد أن وضعت السيدة العذراء وليدها، ورغم أنها كانت في قمة الضعف والجوع، وفي حاجة لمن يساعدها، فإنها وفي وضوح هزت بجذع النخلة التي ولدت أسفلها.

قال لها صغيرها ذلك بشكل واضح: «وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا».

الرسالة واضحة.

فحتى تأكل لا بد أن تبذل مجهودًا، لا بد أن تقوم بعمل حتى ولو صغير.

هل جربت أن تهز نخلة من جذعها؟

في الغالب لم تجرب ذلك، حاول أن تفعل ذلك، لن تكون هناك نتيجة مرضية أبدًا، لن تحصل على شيء، فحتى تحصل على خير النخل لا بد

أن تصعد إلى قمته.

يجرنا القرآن إلى الحقيقة التي يريد أن يثبتها، فهو يعترف بكل ما ورد عن السيدة مريم.

حملت من غير رجل.

وضعت صغيرها الذي نطق في مهده، ليكتب شهادةبراءة لوالدته.

لكنه لا يعترف بألوهية المسيح، فبعد أن جمعته بأمه لحظة إنسانية نادرة جدًا، وضع الدستور الذي يريد أن يعامله العالم من خلاله.

«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»

هنا يتوقف عيسى عليه السلام عن الكلام، لتبدأ الرؤية القرآنية في تثبيت أقدامه «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ».

انحاز القرآن بشكل كامل لرواية الإنجيل عن مريم عليها السلام، فهي لن تضر العقيدة في شيء، بل تأتي دليلًا على المعجزات التي قدمتها السماء للأرض حتى تعترف بطلاقة قدرة الإله، لكنه الانحياز الذي جاء على حقيقة المسيح، فالقرآن لا يقر له بألوهية، ولا ببنوة لله، ولكنه عبد الله ورسوله.

وهنا يظهر لنا الفارق النفسي الرهيب بين مريم القرآنية، ومريم التي تناولتها الكتب الأخرى.

مريم القرآنية توقفت آلامها بعد أن ولدت ابنها دون أب، متحملة ما قاله المجتمع عنها.

سارت معه في رحلته التي ظللتها السماء، عانت معه وهو يتجاوز المصاعب، لكنها وطبقًا لرواية القرآن لم تتعذب بصلبه، بل رأته وهو يصعد إلى السماء بعد أن رفعه الله إليه.

لكن مريم التي صلب ولدها أمامها -طبقًا لرواية الإنجيل- وهي عاجزة وقليلة الحيلة، امتدت آلامها إلى اللحظة التي اخترقت فيها المسامير يدي ابنها وقدميه.

لن أحدثكم هنا عن مريم كما تروي سيرتها الكتب، بل بما شعرت أنا به.

عندما عرض فيلم «آلام المسيح» في دور العرض المصرية في العام 2004، لم ألتفت كثيرًا للممثل الذي قام بدور المسيح «جيم كافيزل»، ولكني توقفت كثيرًا عند الممثلة التي أدت دور السيدة العذراء «إيميليا مايا مورجنستيرن».

ظل السؤال معي.

بالله عليكم أيهما أكثر مرورًا بتجربة الألم؟

المسيح الذي صلب؟

أم الأم التي ترى ابنها يتمزق أمامها وهي عاجزة دون أن تنطق أو تعترض أو تصرخ؟

لقد عانى المسيح ألمًا ماديًا انتهى بصلبه، لكن مريم المقدسة تحملت ألمًا معنويًا هائلًا لا يقدر عليه أحد.

عاشت سنواتها إلى جوار ابنها يأكل الخوف عليه قلبها، ولما صلب، سكنتها الأحزان التي لم تغادرها حتى اللحظة التي ماتت فيها.

ترى ما الذي قاله لها وهو على صليبه؟

هل حاول تخفيف الألم عنها؟ أم أن آلامه شغلته؟

هل قرأ الشفقة في عينيها؟ أم أنها حاولت أن تظهر قوية حتى لا تزيد آلامه؟

كل الأسئلة في هذه اللحظة لا قيمة لها، فالمسيح تعذب مرة، أما السيدة العذراء فتعذبت ألف مرة.

من أجل هذا تحولت مريم إلى ملجأ إلى كل المعذبين في الأرض.

خرجت من هذه اللحظة لتصبح ملاذًا لكل الحزانى والمكسورين.

أصبحت قِبلة لكل الذين يعرفون أن خلاصهم معقود بيد الله.

لقد دخلت السيدة العذراء عند المصريين إلى مساحة الأولياء والقديسين الذين يولون وجوههم شطر أضرحتهم، معتصمين بما يعرفونه من سيرة حياتهم، يستلهمون المعاني، ويقفون على عتبة الله ليحصلوا على العون الذي لا ينقطع والمدد الذي لا ينتهي.

إنهم ينادون السيد البدوي... والقنائي... والشاذلي... وفي لحظة يأس كبرى... ينادونها: يا عدرا.

يتشفع المسلمون عند ربهم بمن ظلمت وماتت مقهورة، عله ينصرهم كرامة لها.

ولذلك ستظل مريم العذراء حائطًا يستند إليه الجميع، على أمل أن يحل نورها وتتجلى معجزاتها.

انتظارها يطول، لكنه على أي حال يظل سلوى للمتعبين،وشفاء للمرهقين، ودواء للمجروحين.

فأن تنتظر ما لا يجيء وأنت تحلم بمجئيه، خير من أن تفقد الأمل في كل شيء.

تذكر انك حملت كتاب مريم المصرية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

***

العذراء تهزم الملحدين

يعتقد كثيرون أن الملحدين الذين نقابلهم في حياتنا في الغالب جاؤوا من خلفية إسلامية، ربما لغلبة الدين الإسلامي في مصر، وربما لاعتقاد البعض أن من يخرجون من دينهم هم المسلمون فقط.

على الأرض هذا مجرد وهم، فعالم الإلحاد يستقبل من مختلف الأديان وافدين جددًا عليهم، لا يترددون عن إعلان إلحادهم، وربما المباهاة به.

وعندما تتأمل هذه الظاهرة، وبعيدًا عن اختلافنا حول الأسباب التي تدفع الشباب إلى الإلحاد، إلا أننا سنجد عاملًا مشتركًا بين كل من يعتنقون الفكرة الإلحادية.

لن أحدثكم عن أداء رجال الدين في الديانات جميعها، فهو سبب مباشر في دفع الشباب دفعًا للابتعاد عن ساحة الدين، يحتجون بهم وبما يقولونه، فسلوك رجال الدين دفع كثيرين إلى الخروج من الدين إلى غير رجعة.

لكنني سأشير ربما من طرف خفي إلى حالة الغيبية التي ترتكن عليها الأديان، وهي حالة أصيلة لا يمكن لأي دين أن يستغني عنها، فالإيمان بالغيب في الأساس هو الاختبار الأقوى لمعتنقي أي دين، فأنت تؤمن بما لا تراه ولا يقدر عليه عقلك في الغالب... ولذلك قيل: ليس مع أمر الله لماذا؟

فليس عليك أن تناقش أو تعترض.

كل ما عليك هو أن تسلم وربما تستسلم فقط.

لن آخذك لحديث، لا طويل أو قصير عن الإلحاد، ولا أهله.

يهمني هنا فقط التقاطع الذي يمكن أن نتوقف عنده، ويجمع بين الملحدين المسيحيين والسيدة مريم العذراء.

فعليًا لدينا عدد لا بأس به من المسيحيين الذين فارقوا دينهم

وخرجوا عليه، وهؤلاء يشكلون تيارًا ممتدًا وعنيفًا على شبكات التواصل الاجتماعي، ومنهم من يجاهر بإلحاده، فلا يسند كتفه على اسم وهمي، ولا يتهرب تحت صورة رمزية، بل يضع صورته الحقيقية ويتفاخر باسمه، ولا يخشى من مواجهة المجتمع، ولهم في ذلك منطقهم الذي يمكن ألا تقتنع به من الأساس، لكنه في النهاية موجود.

قد تعتقد أن للملحدين المسيحيين ميزة نوعية عن الملحدين الذين نقابلهم قادمين من خلفية إسلامية.

في النهاية لا توجد خلافات جوهرية، وإذا تأملت ما يجري على ألسنتهم وأيديهم، ستجد العامل الأكبر المشترك بينهم أنهم جميعًا يتطاولون تطاولًا مبالغًا فيه، وهم يتحدثون ليس عن الدين، ولكن عن رموزه، فهم يعتقدون أن هدم هذه الرموز كفيل وحده بهدم الدين ذاته.

يمكن أن تركن إلى خيالك، وأنت معذور في ذلك تمامًا، وتتوقع أنني أتحدث عن رجال الدين على اعتبار أنهم رموز للأديان.

لا يمكنني أن أقع في هذا الفخ بالطبع.

فرجال الدين ليسوا رموزًا له، هم بالكاد أدوات ينفذون ما قدر الله لهم من عمل.

قصف الجبهة الذي يقوم به الملحدون جميعًا ينصرف إلى الله ورسله، لا يتوقفون عن نقد الرواية فقط، ولكنهم يشتبكون أيضًا مع التاريخ لهدمه من قواعده، اعتقادًا منهم أن هدم ما كان، يُمكّنهم من بناء ما يريدون عليه.

ولأن الأمر على هذه الحال، فقد كان طبيعيًا أن تنال السيدة العذراء قسطًا كبيرًا من الهجوم والتطاول والسباب والسخرية والاتهام أيضًا.

يمكن أن تنحاز إلى أنه من الأفضل تجاهل ما يقوله الملحدون عن السيدة العذراء، خاصة أن ما يلصقونه بها من ألفاظ لا يليق بمقامها، وهو أمر سأتفاعل معك فيه تمامًا، وأعدك أنني لن أثبت هنا شيئًا مما

يقولونه.

لكن اسمح لي فقط، أن أشير إلى أنهم لا يتوقفون عن السخرية من تجربتها الإنسانية والروحية.

فهم لا يستوعبون أن تنجب امرأة دون أن يمسسها بشر.

لا يركنون إلى المعجزة التي خصها الله بها، ووثقتها الكتب السماوية، وهو أمر طبيعي، فموقفهم من الدين يقوم بالأساس على إنكار كل ما هو سماوي.

فالأرض والسماء لم يلتقيا بالنسبة لهم قطُ.

سأسلم للملحدين بفكرتهم في عدم الاعتراف بمعجزة السيدة مريم من الأساس، فهم ماديون تمامًا، ولا يقبلون إلا ما يختبرونه بأيديهم، ودون ذلك فلا مكان ولا ذكر له عندهم، فهم لا يؤمنون بالله، وبالتالي لا يقرون له بطلاقة قدرته، ولا سيطرته على الأسباب التي جعل منها قوانين الأرض، وتركها تتفاعل كما يشاء، فالأسباب عندهم مطلقة.

لكن الإنصاف يقول إن هناك خللًا كبيرًا في تعامل الملحدين مع السيدة العذراء وحكمهم عليها، وذلك لأكثر من سبب.

السبب الأول أن صاحبة المعجزة أو الأسطورة لم تصنعها بنفسها، ولم تشكلها على الصورة التي وصلتنا بها، فلم تقل هي إنها أنجبت دون زواج، بل أخبرتنا الكتب المقدسة بذلك، ويقتضي الإيمان بهذه الكتب التسليم بما قالته كاملًا دون إنكار شيء منه، ثم إن الرواة على مدار التاريخ هم الذين أضافوا لمعجزات وكرامات العذراء، ولو فتحنا كتب التاريخ سنجد الكثير مما ينسب إليها دون أن يكون لها علاقة به من أي نوع.

وعليه، فليس من العدل اتهام السيدة مريم بهذه الصورة والتقول عليها والإساءة العامة لكل ما تمثله، بل يمكن اتهام من صاغوها بهذا الشكل والتشكيك فيهم، وهو ما يتناسب مع ما يفعلونه من تشكيك كامل في

كل الكتب السماوية.

على الملحدين، إذا كانوا منصفين، أن يدعوا السيدة العذراء جانبًا.

عليهم إذا كانوا يحتكمون للعلم والعقل والمنطق أن يكتبوا شهادة براءتها، فقد كانت مادة تشكيلها عبر الرواية والتاريخ دون أن تفرض سطوتها هي على ذلك.

السبب الثاني في خلل المنهج الذي يتعامل به الملحدون مع السيدة العذراء، أنهم لا يقولون عنها ما يقولونه من أرضية مشتركة مع المؤمنين بها وبما قدمته للبشرية، لكنهم ينفردون بها، يضعونها على طاولات تشريحهم المادية البحتة، ولو كان لديهم قليل من موضوعية، لناقشوا ما وصلنا عنها من أرضية دوافع من يقدسونها، ويضعونها في المكان الذي تستحق بالنسبة لهم.

الحق أقول لكم، الخوف الأكبر ليس على من يفتقدون اليقين، وهي حالة مؤقتة حتى لو أنكروا ذلك تمامًا.

ولكن الخوف كل الخوف على هؤلاء الذين يعيشون حياتهم كلها في يقين كامل، دون أن يُخضِعوا يقينهم هذا للنقاش والحوار، لكنهم قبل نهاية الطريق بقليل تزل أقدامهم... لكن هذه حكاية أخرى.

ما يقوله الملحدون المسيحيون عن السيدة العذراء كثير ومخجل ولا يليق، اخترت أن أشير إليه تلميحًا فقط-على الأقل في سياق هذه الزاوية الجديدة التي أطل منها على السيدة العذراء، أو تطل هي من خلالها علينا- لتأكيد أن من يخوض في سيرة هذه السيدة أسير الخرافات التي يسمعها عنها.

لم يعرفها من يسلك هذا الطريق بعين قلبه، بل ترك عقله يخوض في عرضها وشرفها وسيرتها ولحمها بلا رحمة.

لا تخدعني الأساطير، ولا تخيل عليّ أمور الدروشة، ولا أميل لمن يجددون دماء المعجزات القديمة بمنجزات عصرية، فمعجزة العذراء

روحية تتحرك في القلب لمن يريد عونًا ومددًا، وعندما جعلنا منها صاحبة معجزات تقف في سوبر ماركت تلبي للزبائن حاجتهم، تطاول عليها العابرون بلا ضمير والمتسكعون بلا عقل.

لقد أساء للسيدة العذراء من يؤمن بها بيقين كامل... ومن ينكرها بجحود تام.

وليس على هؤلاء إلا أن يكفوا عن الاقتراب منها... فهي لا تستحق منا كل ذلك.

***

إنهم يغنون للعدرا

قالها لي القُمُص الهادئ: تصور إني سمعت واحدة كانت بتغني في المولد بتقول: الرقصة دي للعدرا... والرقصة دي لمار مرقص.

لم يكن منفعلًا... كان يتحدث بأسى شديد عن المخالفات التي رصدها بنفسه في المولد الذي يقام سنويًا أمام كنيستها، وتتحول فيه الدنيا إلى فوضى عارمة، تصل إلى فناء الكنيسة، لكنه لم يكن يتخيل قطُّ أن تصل هذه الفوضى إلى العبث مع السيدة مريم بهذه الصورة.

كان تصرف القمص عفويًا جدًا.

طلب من المسؤول عن الفرقة التي تعمل ضمنها من تجاوزت في حق العذراء أن يغادروا المولد فورًا، لكن ولأنه لا يملك سلطة عليهم، ولأنهم في النهاية بسطاء لا يُقدّرون مدى فداحة الجرم الذي ارتكبوه، اكتفى بالتفاهم معهم، على ألا يأتوا على اسم السيدة مريم أو صفتها فيما يغنون، وقد التزموا تمامًا لأن الأمر بالنسبة لهم أكل عيش، ولأنهم يحرصون عليه، فقد نزلوا على ما يريده القمص.

«الرقصة دي للعدرا... والرقصة دي لمار مرقص».

لم أثبت هذه الجملة بنصها هنا سعيًا إلى تجاوز من أي نوع، فالواقعة

حقيقية، وقفت على أبعادها منذ أعوام طويلة، وظلت مخبوءة في ذاكرتي لا تغادرها، وقد حاولت الإفراج عنها أكثر من مرة، حتى جاء وقتها الذي هو الآن تحديدًا.

كنت أحقق في بعض ما نُسب إلى كاهن كنيسة العذراءبمسطرد، القمص عبد المسيح بسيط، وكان أحدهم قد نسب إليه أنه ألغى الاحتفال بالمولد الذي يقام كل عام أمام الكنيسة، دون أن يبدي لذلك سببًا وجيهًا أو مقنعًا، وهو ما جعله في مرمى القصف.

قابلت بسيط وهو رجل طيب وودود جدًا في مكتب الأنبا مرقص، أسقف شبرا الخيمة.

بانفعال محسوب، اعتبرته أنا هدوءًا شديدًا، قال عبد المسيح: أنا لم ألغِ المولد ولا أستطيع أن أفعل ذلك من يسمح لي الناس، أنا فقط حافظت على قدسية السيدة العذراء مما كان يحدث لها.

كان الكلام غريبًا بعض الشيء؛ إذ ما الذي يضير السيدة العذراء من مولد يقام لها، مثله في ذلك مثل بقية موالدها في محافظات مصر؟

نظر بسيط إلى الأنبا مرقص وقال له بأسى: تصور يا سيدنا أنا كنت قاعد في مكتبي في الكنيسة، وكانت فيه فرقة بتشتغل من فرق الموالد دي، وفجأة سمعت في الميكروفون الرقاصة ولّا المغنية مش عارف بالظبط، بتقول: والرقصة دي للعدرا والرقصة دي لمار مرقص، تصور يا سيدنا.. تصور.

ابتسم الأنبا مرقص، وهو الرجل الهادئ والمتسامح دائمًا، استوعب غضب بسيط الذي لم يمكن باديًا لي في الحقيقة بطريقة عبقرية.

قال له: هدي نفسك، أكيد هي لا تقصد الإساءة للسيدةالعدرا، هي اتكلمت على قد فهمها، وممكن تكون كانت عايزة تعبر عن حبها لها مش أكتر.

هنا انتهى الاستيعاب، لتبدأ المداعبة التي رأيت أنها في مكانها تمامًا،

قال الأنبا مرقص: وبعدين يا أبونا الست دي اللي مانعرفش هي رقاصة ولا مغنية أكيد مش دارسة لاهوت دفاعي زيك، عشان تعرف إيه الصح وإيه الغلط في حق ستنا مريم.

ابتسم الموجودون في جلستنا التي لم تكن رسمية، لكن القمص عبد المسيح بسيط لم يتراجع عما اعتبره غضبًا مستحقًا وواجبًا، قال: مش للدرجة دي يا سيدنا، مش للدرجة دي.

أغلق مرقص الحديث في هذه النقطة مهوِّنًا على تلميذه الذي كان قد أجرى اتصالاته لتغادر هذه الفرقة من المولد فورًا، لكن التفاهمات جعلت الفرقة تكمل عملها دون أن تقترب من السيدة العذراء أو القديسين مرة أخرى.

الواقعة على وضعها هذا بالنسبة لي كانت شديدة الدلالة.

رجل الدين هنا قام بعمله على الوجه الأكمل، استمع إلى إساءة واضحة ومباشرة من وجهة نظره في حق السيدة العذراء، فتصرف بالطريقة الوحيدة التي يعرفها وهي المنع التام، لا حوار ولا حديث ولا نقاش، والراقصة أو المغنية التي وهبت من عندها رقصة للسيدة العذراء ورقصة للقديس مار مرقص، أدت دورها وما عليها كاملًا، ولا يمكن أن نلومها على ما فعلت، وإن كان هذا لا يمنعنا بالطبع من نصحها وتعريفها بما يجب وبما لا يجب.

لقد أدركت راقصة مولد مسطرد أن السيدة العذراء بمولدها سبب في خير كثير يعود عليها وعلى فرقتها، ولأنها بنت بلد وجدعة، فقد أرادت أن ترد بعضًا من الجميل، وهو ما نفعله مع أوليائنا وقديسينا، نعرف أو على الأقل نوهم أنفسنا بأنهم سبب خير يعود علينا، فنشكرهم بطريقتنا.

بعيدًا عن راقصة مولد مسطرد وما فعلته، وبصرف النظر في النهاية عما إذا كان صوابًا أو خطأ، فإن الغناء للعذراء مساحة ملهمة جدًا، تعبير عن محبة خالصة ممن يترنمون في حبها، وهم كثيرون، صحيح

أنهم يعتبرون ترانيمهم جزءًا من الصلاة، لكننا عندما نخرجها من إطار الصلاة ونتعامل معها كأغانٍ مجردة، سنتأكد أننا أمام حالة مصرية خاصة جدًا.

لا يمكن أن نحصر أشكال الأغاني التي يمجد أصحابهاالسيدة العذراء، على طول مصر وعرضها كلمات بلهجات مختلفة، بعضها يدخل تحت مظلة المديح، الذي لا يختلف في قليل أو كثير عن المدائح النبوية.

وعندما كنت أعمل على برنامجي «باب الله» توقفت عندغناء المصريين لوالدة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

استسلمت تمامًا للكلمات التي غنتها العظيمة ياسمين الخيام:

«أم النبي خير الأنام/ شافت منام يوم مولده/ قالت كلام بنردده/ يا بركة الله الأحد/ احمي وليدي من الحسد/ وشر حاسد إن حسد/ يا عين حسود ما تقربي/ حب وكرامة للنبي/ يا خير خلق الله مدد/ يا كل أحباب النبي/ اتجمعوا في نور النبي/ مدد مدد مدد مدد».

ووجدتني أستسلم أيضًا للكلمات الرائعة التي هي مدح كامل في السيدة العذراء:

«أمدح في البتول وأشرح عنها وأقول/ أنتِ أصل الأصول يا جوهر مكنون/ بكِ يا نعمتنا وخلاص جنسنا/ قد بلغنا المنى ونحن فرحون/ تجسد الابن بثبات من فخر البنات/ صلب عنا ومات عند الأقرانيين/ ثمرة العيون هي ابنة صهيون/ أعدائي يقولون غنّ بحبك مجنون».

المديح طويل ولا ينقطع... لكن يكفيني هنا الإشارة التي هي حقيقية وجادة جدًا. فالحب موصول للسيدة العذراء، حب مصري خالص لا شائبة فيه، حب يعبر عن امتنان وشكر.

فاشكروا العذراء بطريقتكم ولا تلتفتوا لمن يتحدث عن الأدب وسوء الأدب.

التاريخ الحقيقي للسيدة العذراء

تظل المعركة بين الرواية والتاريخ قائمة أبدًا لا تنتهي.

التاريخ وقائع وأحداث في الغالب عليها دليل لا يمكن لأحد إنكاره أو التشكيك فيه.

وعندما ينتفي الدليل، تضعف الحجة وتتلاشى، وتبهتالحقيقة وتتبخر، ومن يؤمنون بالمادية التاريخية تراهم يشككون في كل وأي شيء.

وكم من حقائق تاريخية تكشفت عبر أدلة مادية ملموسة، استطاعت أن تواجه روايات شفهية توارثها الناس، وتناقلوها دون أن يكون لديهم دليل عليها، إلا أنهم يؤمنون بها إيمانًا مطلقًا.

أما الرواية، فهي مقدسة، مصدرها الكتب السماوية التي نتعبد بها إلى الله.

هذا غير ما وضعته أمامنا الروايات التي وردت على لسان من عاشوا عصر التنزيل، وهؤلاء نصدقهم أيضًا؛ ثقة في وضعيتهم التاريخية، دون أن يكون لدينا دليل نواجه به من يشككون في وجود بعض الشخصيات التاريخية من الأساس.

تأتينا الروايات تعظم أدوار أنبياء صاغوا التاريخ الدينيللبشرية بجهادهم وأفكارهم وعلى هامش الوحي، فلا نستطيع لها إنكارًا أو معها مناقشة، حتى لو تعارضت بعض تفاصيلها مع ما جاء في الوقائع التاريخية.

أعرف باحثين كثيرين وقعوا في مأزق نفسي حاد جدًا لأنهم من خلال أدوات البحث المادية التي يملكونها يتوصلون إلى حقائق مذهلة، تتنافى تمامًا مع ما استقر في يقين الناس، لكنهم في الغالب يخفون ما توصلوا إليه، لأنهم يعرفون أن الناس لن يصدقوهم، وإذا حدث وصدقوا ما يقال لهم، فإنهم في الغالب يميلون إلى الانحياز لما تربوا

عليه.

راجعوا التاريخ القريب والبعيد.

ستجدون باحثين كثيرين ضاعوا نتيجة مناطحة الثوابت التي حاولوا إزاحة إيمان الناس بها، فتأكدوا أن الرواية أقوى من التاريخ، والحكاية أقوى من العلم.

وأنا أبحث في تاريخ السيدة العذراء توقفت أمام كم هائل من التناقض والمغالطات.

فهي ليست مريم واحدة.

الإيمان بها واحد، لكن حكايتها ليست كذلك.

يمكن أن تضع كل التفاصيل جانبًا، فما الذي تريده عنها غير ما قاله الإنجيل وما حكاه القرآن.

ثم بعد ذلك ليس عليك إلا أن تتمسك بعقيدتك التي تقبض عليها كالقابض على الجمر.

فإذا كنت مسيحيًا أمسك بالإنجيل وردد ما قاله عنها.

وإذا كنت مسلمًا فافتح مصحفك وصلّ بما ورد عنها من آيات.

وفي الحالتين، ستكون النتيجة واحدة، فأنت تتقرب بما تفعله إلى الله، وليس أهم ولا أبقى من القرب إلى الله على جناح السيدة العذراء، التي ارتضت السماء أن تجعل منها أيقونة يتبرك بها الضائعون، ويولي العجزة وجوههم شطرها.

يمكنك أن تستسلم لما أقوله، وسيكون من السهل عليك جدًا تنفيذه، هذا إذا أردت بالطبع.

لكن المسألة ليست بهذه السهولة أبدًا، لأنها لو كانت كذلك لما استغرقت البشرية كل هذه السنوات في جدل لا ينتهي مثلًا حول

طبيعة السيدة مريم، ولا دورها، ولا تجليها.

ولذلك آن الآوان لكتابة تاريخها بعيدًا عن الرواية المقدسة.

الذين يؤمنون بالكتب السماوية ولا يقبلون فيها أو حولها حوارًا من أي نوع، لا يقبلون مثلًا أن كثيرًا من الحكايات والقصص التي وردت فيها، ليست حقيقية، وأن الله سبحانه وتعالى أوردها للعظة والعبرة وليس أكثر من ذلك. فالإنجيل والقرآن ليسا كتابين للتاريخ.

لا يمكن أن نعتمد عليهما كمصدر نؤرخ به للبشرية وتاريخها وما حدث فيها ولأهلها، ولكن من خلال قصصهما يمكن أن نخرج بخلاصة تجارب، أن نعرف العظة والعبرة من وراء الأحداث، دون أن نتورط في سؤال لن تجد له إجابة مقنعة عند أحد على الإطلاق، وهو: هل كل ما ورد فيها من حكايات وقصص حقيقي، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أم أنه مجرد حكي يصل في حبكته إلى عمل روائي، نتعاطاه في حياتنا وصلواتنا ومحاريب عبادتنا لنستعين به على الحياة وما نخوضه فيها من صعاب ومشقات؟

لقد وصل الذين يلحدون في أديان الله المختلفة أن أنكروا قصة المسيح عيسى بن مريم من الأساس، ذهبوا بالقول إنه لم يكن موجودًا، لا باسمه ولا برسمه.

حلا لهم هذا التصور، مستندين فيه إلى رؤى طرحها باحثون، معتقدين أنهم بذلك يمكن أن يخلو لهم ما يؤمنون به من عدم وجود أنبياء، تمهيدًا للخطوة الكبرى وهي أنه لا يوجد إله من الأساس.

إنكار وجود المسيح عليه السلام، معناه الطبيعي أن ينكر هؤلاء وجود السيدة العذراء أيضًا، فهي بالنسبة لهم ليست موجودة أيضًا، لا باسمها ولا برسمها، وعليه، فإن حكايتها ليست أكثر من أسطورة من الأساطير التي تداولها الناس حتى أصبحت حقيقة، وكل ما نسب إليها ليس إلا وهمًا من الأوهام الكثيرة التي اخترعها البشر، لأنهم كانوا في حاجة

إليها.

هذا كلام لا يمكن أن نركن له بالطبع، ولا نطمئن إليه أو نثق به، لسبب بسيط: أنه قيل على كل الأنبياء دون استثناء قبل المسيح عليه السلام وأمه السيدة العذراء، بداية من نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل، عندما ذهب طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» إلى أن قصة الذبيح ليست إلا اختراعًا بشريًا، وأنها لم تحدث من الأساس، وصولًا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يذهب البعض إلى أنه لم يكن هناك نبي اسمه محمد.

هذا كلام هزلي بالطبع، طه حسين تراجع عما قاله كله وذهب بقدميه ليحج ويزور الأماكن التي شهدت قصة إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل، ويحكي من شهدوا على أداء طه حسين لفريضة الحج أنه كان يبكي بشدة وينتحب، بل نجح في أن يمسك بالحجر الأسود، الذي تعامل معه على أنه بعض من خلاصه. لماذا أقول إن هذا الكلام هزلي؟

لسبب بسيط، أن إنكار الملحدين للأنبياء، وإحالة حكاياتهم على أنها قصص نسجها البشر، أنهم عندما يثبت لهم أن هؤلاء الأنبياء موجودون، يلوذون بحبل آخر، يقودهم إلى القول بأنه إذا كان الأنبياء عاشوا على الأرض، فإنهم لم يكلفوا من السماء بشيء، فعندهم أن السماء لم تتواصل قطُ مع الأرض بأي شكل من الأشكال.

الأمر معقد جدًا فيما أعتقد.

فالسيدة مريم العذراء، حتى عند الذين يؤمنون بها، ليست مريم واحدة، فهم أيضًا يختلفون حول طبيعتها ومكانتها.

فهي عند الأرثوذكس ليست هي نفسها عند البروتستنات، وهي عند الاثنين ليست هي عند الكاثوليك، وكل فئة تدافع عن نفسها، وعن رؤيتها، وعما ذهبت إليه.

أنفقوا في ذلك سنوات طويلة، وكتبوا ملايين الكلمات، وسودوا آلاف

الصفحات، ولم ينتهِ الخلاف، وأعرف جيدًا أنه لا ينتهي.

لا أعرف هذا فقط، ولكني أعرف أيضًا أن بعضًا من المسيحيين يغضبون عندما يحدثهم مسلم عن أمر يعتقدون أنه خاص بدينهم، يقولون ما لك أنت وديننا، وقد يكون لديهم بعض الحق في ذلك، لكنني لا أتحدث هنا عن أمر خاص، فالسيدة مريم وتاريخها وحقيقتها ليست ملكًا للمسيحيين فقط، هي ملك لنا جميعًا، ليس لأن القرآن كرمها وجعلها سيدة نساء العالمين، ولكن لأن مصر أكرمتها على الأرض وحمتها ومنحتها الأمن والرعاية. يمكن أن يتجاهل الجميع هذه الدعوة، كتابة تاريخ واحد وموحد للسيدة العذراء.

فالجميع يرتاحون لما نحن عليه، ويطمئنون له، ولا داعي للتعب والإرهاق، فما دمت مستقرًا على ما تعتقد وترتاح له، فلماذا أهز راحتك وأزعج استقرارك، لكن صدقني، ما نحن عليه ليس استقرارًا أبدًا، هو وهم كبير نرقد عليه.

لا أدعو إلى كتابة تاريخ جديد للسيدة مريم العذراء، ولكنني فقط أشير إلى ما يشبه المحنة التي يعيشها من يؤمنون بها، إنني أدعو إلى كتابة التاريخ الحقيقي الذي هو حتمًا تاريخ واحد، لا يخضع للرؤى والأفكار والانحيازات... فما حدث على الأرض بالفعل هو أمر واحد فقط، لكن ولأننا لم نرَه رأي العين، فإن كلًا منا يجتهد على هواه، وآفة الرأي الهوى كما يقولون.

هذه دعوة لكل من يخدمون السيدة مريم العذراء من قلوبهم، حاولوا أن تقدموا لها هذه الخدمة. اكتبوا تاريخًا واحدًا لها.

وكما تمنحنا السيدة العذراء الأمل الذي نتغلب به على صعاب حياتنا وخطوبها.

فإنها قادرة على منحنا الوحدة، وهي في الواقع أكثر ما نحتاج إليه الآن .